أ.د. محمد الدسوقي
الأستاذ بجامعة القاهرة

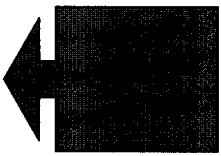

مسيرة التقريب بين النظرية والتطبيق

إن كتاب المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في طبعته التاسعة يعد وثيقة تأريخية مهمة، فقد أكدت على أن هذا المجمع له رسالة عالمية هي امتداد لجماعة التقريب التي قامت في القاهرة بجهود عدد من علماء أهل السنة والشيعة، وظلت نحو عشرين عاما تؤدي واجبها التقريبي على أحسن وجه والذي عبرت عنه رسالة الإسلام في أعدادها الستين.

وقد توقفت هذه الجماعة عن نشاطها العلمي لظروف متعددة لا مجال لتفصيل القول فيها، فكان انشاء المجمع العالمي للتقريب بعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران إحياء لتلك الجماعة التي قامت في القاهرة في القرن الماضي، وهذا الإحياء دليل على أن هذا المجمع شغله الشاغل هو خدمة المسلمين كافة، في جمع الكلمة وقيام الوحدة، وتجلى ذلك في العمل العلمي الثقافي الذي شمل عدة مجالات منها النشر وعقد المؤتمرات والندوات،

والإسهام فيها على مستوى العالم الإسلامي، ومع هذا النشاط الجم والجهد المبذول ماديا وفكريا في مسيرة التقريب ما زالت مفاهيم هذه المسيرة تراوح مكانها وكأنها بين طائفة من المفكرين والباحثين، وما زالت سهام النقد تسيء الظن بها، وما زالت العقبات تشتد وطأتها في طريقها، وذلك في تصريحات بعض القيادات الإسلامية المرموقة والتي تحذر من اتخاذ التقريب شعارًا لنشر مذهب فقهي على حساب مذاهب أخرى، وزاد الطين بلة في الآونة الأخيرة في ظل ربيع الثورات العربية تدخل السياسة على مستوى الحكام والمسؤولين لتشويه سمعة التقريب باتخاذها ذريعة لمكاسب اقليمية وبذر بذور الشقاق بين الشعوب الإسلامية .

وإذا كان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم (اسيسكو) جهد مشكور في العمل التقريبي، وإن كانت بهذا الجهد لا تضارع المجمع العالمي ومع هذا فهي وهذا المجمع يمثلان طائر التقريب بجناحيه في المشرق والمغرب، ولكن هذا الطائر لم يحلق بجناحيه في أجواء العالم الإسلامي بصورة تقدم رسالة التقريب على نحو يهيّئ النفوس والعقول لاحتضان هذه الرسالة والإيمان بها والدعوة إليها، فما زالت المفاهيم المغلوطة حول التقريب تعشعش في عقول ـ لا أقول عامة المثقفين ـ ولكن في عقول جمهرة أساتذة الجامعات وكبار المفكرين، وتظهر مؤلفات وأقوال لهؤلاء تطعن في صدق الدعوة إلى التقريب، وتدعمها ببعض الآراء التي عفى عليها الزمن، ومثلت مرحلة تأريخية في حياة الأمة، ولا جدوى الآن من ترددها، بيد أن الأغراض الهابطة تزعم أنها ما زالت قائمة، وأن التقريب لا سبيل إليه ما دام الهجوم على الصحابة يتكرر في بعض الدوريات والبرامج الإذاعية المرئية .

إن مواجهة الحقائق دون مجاملة أو مواربة هي الطريق الواضح لدفع التهم والأباطيل، وإظهار الحقائق في ثوب ناصع لا مراء فيه، ولذلك أقول إن الطريق إلى تحول الفكر النظري التقريبي إلى تطبيق عملي، ليس مفروشا بالورود، ولكنه مزروع بالأشواك والعقبات، ولابد من تحديد دقيق لهذه العقبات وبيان المنهج العلمي للتخلص منها .

عقبات في طريق التقريب :

إن الصفة الشرعية للوحدة الإسلامية أنها فريضة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تقرر هذا، ومن الآيات القرآنية قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١)، ومن السنة قول رسول الله ﷺ : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.. وفي رواية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فالوحدة بين المسلمين فريضة وضرورة، وليس بلازم أن تخضع الأمة كلها لحاكم واحد .

ولكن المهم أن تسود بين المسلمين روح الأخوة الإسلامية، روح الأخوة التي تؤمن بالإيثار والمودة والتكافل والعطاء في غير مَنّ، والإيمان بأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وأن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، هذه المعاني وغيرها والتي أصبحت في واقع الأمة غير مطبقة بصورة عملية، الأمة اليوم في حاجة إلى إحيائها والاعتصام بها وعدم التفريط فيها ..

وما دامت الوحدة الإسلامية من حيث الصفة الشرعية لها كما أومأت آنفا فإن العمل من أجلها فريضة أو واجب لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ومن ثم ينبغي أن تكون الأمة أو أهل الذكر فيها على بينة بالعقبات أو المثبطات التي تعرقل مسيرة العمل التقريبي، فهو إحدى الوسائل الجادة لقيام الوحدة المنشودة .

وهذه العقبات أو المثبطات بعضها خارجي، وبعضها الآخر داخلي.

وتتمثل المثبطات الخارجية في الأجندات الغربية المتخصصة في إجهاض كل عمل من شأنه أن يوحد كلمة الأمة ويسدد خطاها على طريق الوحدة والقوة والعزة، والكشف عن هذه الأجندات في موضوعية وأمانة علمية هو الوسيلة العملية لمقاومتها، بأسلوب يتوخى الكشف عن الأباطيل ووسائلها حتى لا تمارس نشاطها المعادي وبخاصة بين الشعوب الإسلامية.

إن هناك مؤلفات غير إسلامية وآراء للمفكرين والباحثين الغربيين يتربصون الدوائر

بالإسلام والمسلمين، وتقوم الصهيونية العالمية بدور الممول لهذا السعي المحموم لمقاومة المد الإسلامي والعمل التقريبي والتخطيط للوحدة الإسلامية، والذين يظنون أن الاستشراق قد تخلى عن سياسته التي كان عليها من قبل مخطئون، فما زال الفكر الاستشراقي يبث سمومه بين غير المسلمين لينفرهم من الإسلام، وأيضا بين المسلمين ليشكك كثيرًا منهم في عقيدته وشريعته، ومن ثم أقترح أن تكون في المجمع العالمي للتقريب مؤسسة علمية مهمتها تتبع ما يقال عن الإسلام والمسلمين والرد على الافتراءات والأباطيل بلغات أهلها، وأيضا باللغة العربية حتى يحذر المسلمون الوقوع في شباك هذه الأباطيل التي تحاول دس السم في العسل.

وأما العقبات الداخلية فبعضها يرجع إلى فئة من القيادات الإسلامية يتوجس خيفة من الدعوة إلى التقريب، وترى فيها تهديدًا لسلطانها أو توجهاتها السياسية سواء في معالجة مشكلاتهم الإقليمية أو الخوف على علاقتهم بغيرهم من الأمم وبخاصة القوى العالمية التي تفرض هيمنتها الناعمة على بعض الأقطار الإسلامية .

ومن العقبات الداخلية أن موقف بعض الدول الإسلامية من الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد أن أصبح لها ثقل دولي، ولم تعد تخضع لما تسعى إليه من البناء الحضاري السلمي لقوى الاستكبار العالمي في فرض العقوبات أو تخويف بعض الدول من الهيمنة عليها، ولأن هذه الجمهورية قد تبنت منذ نحو ربع قرن الجهاد العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية وأنفقت ما أنفقت وما تزال تنفق في هذا السبيل، تتخذ تلك القوى المتربصة بالعمل التقريبي من هذا العمل ذريعة للتحذير منه، لأنه محاولة تبدو علمية في ظاهرها، ولكنها تحمل في طياتها أهدافًا سياسية وهيمنة مذهبية، لذلك تقاوم بعض الدول التقريب، ويسهم في هذه المقاومة كثير من الفقهاء، ويعدون هذا الإسهام جهادًا لنصرة أهل السنة والجماعة. لقد ذكرت من قبل التحديات الكبرى[٢] التي تواجه رسالة التقريب اليوم أن هناك فجوة تزداد كل عام سعة وعمقا وتضع الأشواك في طريق العمل التقريبي وتتمثل هذه الفجوة في سوء الظن وفقدان الثقة بين أتباع المذاهب الفقهية، ويتجلى هذا في الاتهامات المتبادلة بين هؤلاء الاتباع، وتلقى هذه المواقف المتعارضة من

القوى الخارجية كل دعم واهتمام لأنه يساعد على تحقيق أهدافها دون أن يكون لها تدخل مباشر أو موقف صريح .

إن الأمر جد خطير ويحتاج إلى جهد علمي بصير من أجل تحجيم تلك العقبات إن لم نستطع القضاء عليها، حتى تجني الأمة بعد هذه المرحلة الطويلة للتقريب منذ جماعته في القاهرة، وحتى الآن في ظل نشاط المجمع العالمي ثمرة هذه الرحلة في التخلص أولا من سوء الظن بالوضوح والمصارحة والتأكيد على أن الدعوة إلى التقريب ليس لها إلا هدف واحد وهو جمع كلمة الأمة حتى تستطيع أن تنهض من جديد وتنفض عن كاهلها أوزار التخلف والتشرذم، وتبدأ رحلة البناء والتعمير والقوة والحضارة .

مستقبل العمل التقريبي:

إن الجهود التي بذلت في سبيل التقريب لن تذهب هباء، فهي قد وجهت الأنظار بالنسبة للمؤمنين بها وغير المؤمنين إلى أن الأمة لا ينبغي أن تظل ممزقة، وأن يكون للاختلافات المذهبية دور سلبي في حياتها، لأن دينها يفرض عليها أن يحسن كل مسلم بأخيه الظن، وأن يسهم بقدر ما يستطيع في سبيل ما يعود على الأمة بالخير والنفع، فالتعاون على البر والتقوى فريضة، والسلبية والفردية ليست من خصال المؤمن الكامل في إيمانه، ومع هذا لابد من اتخاذ خطوات إيجابية عملية لتفعيل رسالة التقريب على مستوى العالم الإسلامي، ولعل انعقاد مؤتمر الوحدة في غير طهران ولو عن طريق التناوب يسهم في الوصول إلى الوحدة، لأن انعقاد هذا المؤتمر في العاصمة الإيرانية لنحو ربع قرن والذين يشاركون فيه كل عام لا يكادون يختلفون، قد يفهم منه أن الجهد المبذول محصور في الجمهورية الإسلامية وأن النشاط التقريبي ما زال في نطاق محدود من حيث المكان والمساهمين فيه .

والأولى أن تتسع دائرة المساهمين في ذلك المؤتمر فلعل هذا يساعد على نشر الفكر التقريبي، ويرد على الشبهات التي تثار من البعض حول الغاية من التقريب .

وإذا كانت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (اسيسكو) تهتم برسالة التقريب وإن لم يكن هذا الاهتمام في درجة ما يقوم به المجمع فإنه يمكن تفعيل التعاون

بين المجمع والمنظمة لعقد مؤتمرات تقريبية في المغرب الإسلامي، ولا يقتصر التفعيل على عقد المؤتمرات، وإنما يتجاوزه إلى تبادل المطبوعات والنشرات والآراء وبخاصة رسالة التقريب وثقافة التقريب، وأيضًا تبادل الزيارات بين بعض أعضاء المجمع والمسؤولين في المنظمة للوقوف على تطورات الدعوة إلى التقريب، وتقديم المقترحات التي تسهم في جعل هذه الدعوة حقيقة واقعية ولها تأثيرها في الأوساط العلمية . لقد لاحظت أن ما جاء في كتاب المجمع في طبعته التاسعة لم ترد فيه إشارة إلى عقد ندوات أو مؤتمرات أو الإسهام فيها في بلاد المغرب الإسلامي ابتداء بمصر وانتهاء بالمملكة المغربية وموريتانيا، وهذا ما دفعني إلى الدعوة إلى تفعيل التعاون بين المجمع وبين المنظمة وهو تعاون ضروري لنشر رسالة التقريب في جميع ربوع العالم الإسلامي، حتى تتلاقى الأفكار والآراء من كل قطر إسلامي في وجوب الدعوة إلى التقريب ..

إن مستقبل التقريب سيكون بإذن الله مزدهرًا ما دامت النية الطيبة والرغبة الصادقة تهيمن على كل الدعاة العاملين في مجال التقريب، مهما تكن العقبات والتحديات فإنها تزيد هؤلاء الدعاة إيمانا بما يعملون في سبيله ويجاهدون من أجله، لأن الحق ينتصر دائمًا بإخلاص المؤمنين به، ومتابعة العمل من أجل إعلاء كلمته، ورفع رايته، والتقريب كلمة حق لنصرة وحدة الأمة، واعتصامها بحبل الله فلا تفرق ولا تنازع ولا اختلاف ولا طائفية أو مذهبية، ولكن وحدة جامعة، تواجه كل من يتربص بها بالعزيمة والإرادة التي تفل الحديد، ولا تستسلم أبداً لضغوط النزعات التي تمزق ولا تجمع، ومن ثم تحيا الأمة عزيزة ترفض الدنية في دينها ودنياها، وتؤكد في كل سلوكها بأنها خير أمة أخرجت للناس .

الهوامش:

١ - الأنبياء / ٩٢.

٢ - انظر التحديات الكبرى، رسالة التقريب، ورقة عمل قدمت في مؤتمر الوحدة الرابع والعشرين .